جنـــدى مرابط

للأستاذ محمد سعيد العريان

« راجح ! حبيبي ! أرجوك ... إن العدوّ لا يرحم ، ولا يعفو ؛ فلا ترمِ بنفسك إليه ... احرص على حياتك من أجلي يا حبيبي ! عِش لي ، أوْ لا ، فاقتلني واسدِل بيديك أجفاني قبل أن أرى فيك مصارعَ أهلي وأهلك يا راجح ! »

كانت « بدرية » تتحدث إلى فتاها وقد أمسكت بيديه ، ورفعت إليه عينين مخضلّتين بالدمع وفي صوتها نبرة يأس وأسى . كانت موقنة بأنه لن يستمع إليها ، ولن يجيب ؛ ولكن جذوة الحب التي تؤجج في صدرها كانت تبعث في نفسها أثارةً من الرجاء !

واستمع إليها الفتى صامتاً وفي قلبه عواطف تتصارع ، وفي رأسه خواطر تموج وتتدافع ؛ وأوشك أن ينتكث عزمه ، حين التقت عيناه بعينيها الدامعتين وأحسّ شدّ يديها على يديه كأنما تخشى أن يفر إلى أجله قبل أن تُلقي إليه كلمة الوداع !

وبرز القمر من خلال أعذاق النخيل ، فألقى شعاعه على وجه الفتى والفتاة جالسين مجلسهما على مقربة من مضارب الحيّ ، وقد سكن كل شيء منهما ومما حولهما ، إلا قلباً يجف وأنفاساً تتردّد . . .

وثابت إلى الفتى نفسه حين أذكرته صاحبته مصارع أهلها وأهله ؛ لقد كان موشكا أن يخور وتضعف عزيمته ، ولكن ذكرى أهلها ، وأهله ... ووطنه ... قد ردّته إلى رأيه ، فأفلت من يدي صاحبته ووقف ، وهتف :

« نعم ... ولكنّ دم آبائي يا بدرية ، ودم أبيك ، وشرف الوطن ... يناديني ؛ لقد أقسمتُ أن أنتقم أو أموت ، وسأنتقم ، أو أموت ... وبومئذ ألقى آبائي ، وآباءك ، رافع الرأس فخوراً بما بذلت لأهلي ووطني ، من دمي ... ! »

جزء كبير من أراضينا مؤقتاً وتقيم ألمانيا حاميات في شمال بلادنا وغربه من بحيرة جنيف حتى تور ثم على طول الساحل من تور ، حتى جبال البيرينيه . ويجب أن تسرح جيوشنا وأن تسلم معداتنا وتحصيناتنا وأن يجرد أسطولنا من سلاحه في موانينا . وستجرد القواعد البحرية من سلاحها في البحر الأبيض المتوسط

أما الشرف فلا يزال سليما . فلن يستخدم أحد طائراتنا ولا أسطولنا . ونحن نحتفظ بالوحدات البرية والبحرية اللازمة للمحافظة على النظام في فرنسا ومستعمراتها ، وستظل الحكومة حرة ولن يدير شؤون فرنسا إلا الفرنسيون

لقد كنتم على استعداد لمواصلة القتال — إني أعلم ذلك — ولكن الحرب كانت لا محالة خاسرة في فرنسا

لا تنتظروا كثيراً من الدولة فهي لا تستطيع أن تعطي إلا ما تتلقاه . اعتمدوا في الوقت الحاضر على أنفسكم وفي المستقبل على الأبناء الذين ستربونهم ؛ وعلينا أن نجدد فرنسا ، فأظهروها للعالم وهي ترقب خصمها وتعمل في هدوء وكرامة . لقد أتت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية ، فإني أدعوكم قبل كل شيء أن تنهضوا بأخلاقكم . أيها الفرنسيون ، إنكم لقادرون ، وإني أقسم لكم أنكم سوف ترون فرنسا جديدة تنبعث من حرارة إيمانكم

رد الجنرال دي جول على بيتان

قال الجنرال دي جول في إذاعة له رداً على بيان المرشال بيتان :

« في ساعات الخجل والغضب هذه ، يجب أن يرتفع صوت واحد للرد عليك

« لقد ضربت فرنسا بقوات العدو الميكانيكية ، فإذا كانت فرنسا لا تملك هذه القوات الميكانيكية ، فغلطة من هذه ؟

« لقد كنت ترأس هيئاتنا الحربية بعد انتهاء الحرب في عام ١٩١٨ ، وكنت قائداً عاماً حتى سنة ١٩٣٢ ، وكنت وزيراً للحربية في عام ١٩٣٥ ، وكنت أكبر شخصياتنا العسكرية . ولكنك لم تطلب أبداً إدخال الإصلاح اللازم لهذا النظام البالي

إن قبول العبودية لم يكن يتطلب بطل فردون ، بل أي إنسان كان يستطيع عمل هذا . إنك رفضت موارد الإمبراطورية البريطانية والمساعدة الأمريكية الكبيرة ، وقد لعبت لعبة فاشلة وألقيت بالأوراق وكأنه لم يبق في أيدينا أية ورقة نافعة

كيف تنتظر من فرنسا النهوض مرة أخرى وهي تحت أحذية الألمان الثقيلة وأحذية الرقص الإيطالية ؟

« ألا إن فرنسا ستنهض مرة أخرى في الحرية والنصر

« إن أسلحتنا منضمة إلى أسلحة حلفائنا ستعود بالنصر ، وسنعيد خلق فرنسا ... »

وراح يدبّ على رمال الصحراء ، تحت ضوء القمر ، وبندقيته على كتفيه ؛ لم يحاول أن ينظر إلى وراء فيودّع الفتاة التي كان كلّ شيء في دنياها وكانت ؛ ومضى ليجيب داعي الوطن !

* * *

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة ، حين زحفت الجنود المغيرة من مرابضها التي ترابط فيه منذ سنوات على ساحل برقة ، تحاول أن تبسط سلطانها على الجنوب كما بسطته على الشمال لتعيد مملكة الرومان في جوف الصحراء وتنشئ لها عرشها من جريد النخل في ظلال أغصان الزيتون ...

واصطرعت قوتان ، أما إحداهما فكانت تملك الحديد والنار وفي يدها السيف والذهب ، وأما الأخرى فكانت تملك الإيمان بالله ، والإيمان بالوطن ... وترامى الفريقان بنبالها ، وسال الدم ، وعقد الدخان ضبابة سوداء فوق رءوس المسكرين ، ودارت رحى المنون !

وانتبه الفتى والفتاة من سكرتهما وحيدين قد فقدت أباها وفقد أباه وعمه ؛ فأقسم من يومئذ قسمه وأبرم عزمه ...

... وخلف الفتاة في الحي تنتظر مآبه !

* * *

لم تهدأ ثائرة البادية حين خيل للفاتح المغير أنّ قد غلب وتسلط ، ولكن جمرات تحت الضلوع تبض بصيصها ثم تختفي ، ولا تخبو

وقاد « راجح » فرقته الصغيرة فمضى بها حتى أوى إلى غار في طريق الرائد والسابل والقافل ، يتربص على حذر ورقبة ؛ فما يمر به وليّ ولا عدوّ إلا عرّفه نفسه وخيّره بين عاقبتيه ...

وتشرى أمرُ الفتى وعزّ جنده ، ووفدت إليه الوفود من أبناء البدو وأفلاذ الصحراء مذعنة لأمره مطيعة ، وعقدوا له اللواء ؛ وحار العدو حيرته فما عرف سبيلاً إليه ولا منجاة منه ، وإن له العدد والقوة والعتاد !

وترامت أخبار الفتى إلى فتاته ، فرفعت عينيها إلى السماء تدعو الله مشفقة راجية !

وبثّ العدوّ سراياه بين الكهوف والوديان يطلب أثره ويلتمس غرّته ، وراحت الدبابات تطأ الأخبية وتجوس خلال الديار ، وحلقت الطيارات تقذف اللهب وترمي بالصواعق ، ومضت الكتائب المكتّبة تحاصر القرى وتقطع الطريق ؛ وانكشف المخبأ ، ونشبت المعركة في ضوء الصبح ؛ وكان ما لا بد أن يكون ، وأمعن العدوّ قتلاً ومُثلة حتى بلغ مبلغه ؛ وتبدد الجيش الصغير الباسل وتقسمته بطونُ الأرض أشلاء وجماجم ...

وحلقت طيارات الجيش الظافر ترسل تحيتها إلى القرى المغلوبة قذائف من جماجم بنيها الشهداء ؛ وليس الحدادَ شعب بأسره ؛ وأحدّت « بدرية » على فتاها كما أحدّت على أبيها وأهلها من قبل !

* * *

وفي بيت من الشعر إلى جانب الصحراء في غرب الأسكندرية ، رأيت بدرية منذ ثلاث سنين ...

كنت أصطاف يومئذ هناك ، وكان بيتها على مقربة ، فإنها لتغدو عليّ وتروح كل يوم لحاجتها بين السوق والبيت ؟ فأراها ...

لم أكن أعرف شيئاً عن ماضيها ، ولم يحدثني أحد بخبرها وإنها لواحدة من كثيرات من الأعراب قد ضربن خيامهن هناك ؛ ولكن مرآها كان يثير في نفسي فضولاً عجيباً ؛ فما أكاد ألحظها قادمة من بعيد حتى تطيف بي خواطر وأسئلة لا أجد في نفسي جوابها ؛ فأتبعها عيني حتى تغيب ...

كانت بزتها ، وعينيها ، وشفتيها المطبقتين أبداً على ابتسامتها الماسة ـ تمثالاً صامتاً يرمز إلى أبلغ معاني الوحشة واليأس والحرمان ، حتى لا يملك من يراها إلا أن يتخشع ويصمت ؛ وكان لها جمال ، وفي عينيها وداعة ، وعلى جبينها طهر ؛ وعلى أنها فيما تبدو لمن يراها جاوزت الأربعين فقد كان لها روح الطفل وخفته

... وعرفتُ خبرها من بعد ، فأعظمتُ وفاءها ، ورثيت لها .

* * *

لقد مضت بضع عشرة سنة ، منذ تلك الليلة التي خلّفها راجح ومضى لأمره يحاول أن يثأر لقومه ؛ ولكنها ما تزال بعدُ كأنها منه على ميعاد ، وكأنما كان ما كان منذ أيام . لم يزدها مرُّ السنين وحادثاتُ الليالي ، وفراقُ الوطن ، إلا وفاء لذكراه

وجلَتْ عن أرضها مكرهة فيمن جلا من عمومتها وبني أبيها ، ولكن قلبها بقي هناك ، حيث وقفت لآخر مرة تتبعه عينيها وهو ماض لأمره تلثّه ريح الصحراء في الليل القر !

وقنعت بذكراه عن الأمل في لقياه منذ جاءها النبأ الفاجع ! ونذرت نفسها للوفاء بعهده ، فلم تتزوج ، ولم تخلع الحداد !

ونسيتْ ما كان من ماضيها ومن أيامها ، إلا صورته وذكراه ؛ وتأيّمت العذراء ولما تخلعْ أبراد الشباب !

* * *

وكانت بدرية فى فراشها حين دوّتْ صفارةُ الإنذار لأول مرة فى الإسكندرية ، تنذر أهلها ليأخذوا أهبتهم للكفاح ؛ وأشرق الصبح وقد هجر المدينةَ نصفُ أهلها فراراً من الموت ؛ فحملتْ بدرية متاعها ومضتْ مع الناس تلتمس سبيلاً إلى النجاة !

يا رحمتا للمسكينة مما يطاردها من أحداث الليالى !

وأعياها السير ، فحطّتْ متاعها عن كاهلها وجلست تستريح على حيد الطريق ، حين مرّ بها فوجٌ من الجند فمدّتْ عينيها تنظر ...

ونظرتْ ، فعرفت ، فهتفت ...

ولكن هتافها تلاشى فى ضجة الناس وزحمة الطريق ؛ ومضى الجند ومضت تعدو فى آثارهم وتركت متاعها تتقاذفه أقدام السابلة ...

وانقطع بها الطريق فما بلغتْ ولا بلغ صوتها إلى من يَسمع ، وكأنما كانت تنادى مُنادًى من التاريخ يفصلها منه بضعة عشر عاماً من عمر الزمان !

وهامت المسكينة على وجهها ذاهلة لا تكاد تعى شيئاً مما ترى أو تسمع ، ليس لها هدف فيما تسعى ولا غاية إلى ما تسير !

وأعيتْ بعد جهد فسقطت فى الطريق لا حسٌّ ولا حركة ولا حياة ؛ ثم أفاقت لتسأل نفسها ويسألها الناس فلا تجد الجواب !

وتتابعت على عينيها ذكريات الماضى يوماً يوماً منذ كانت حتى صارت ؛ ونظرت يمنة ويسرة ، ثم انطلقتْ تعدو ... !

* * *

وعرفتْ بعد لأى أين تقصد ، فمضت فى طريقها ...

... والتقى فى خيمة الضابط الشرف على فرقة المتطوعين من أعراب الصحراء شخصان لم يلتقيا منذ بضع عشرة سنة ، أما أحدهما ففتاة فى الأربعين قد تقنعت بلفاع أسود حائل ، وعليها ثوب أسود مرقوع ، وترف على شفتيها ابتسامة لم تنفرج عن مثلها شفتاها منذ سنين . وأما الآخر فرجل أشمط نحدّد الوجه فى جبينه شجّة ملحومة ، يلبس حلة عسكرية وعلى رأسه طربوش بدوى غليظ يكبس أذنيه ويتدلى زره على قفاه ...

وقالت الفتاة : راجح ! ...

وغصت بريقها وتسابقت بوادرها على خديها !

وقال الرجل : لم أكن أظن يا بدرية !

وكان الضابط جالساً إلى منضدة فى صدر الخيمة يسمع وينظر ويبتسم ابتسامة الغبطة والرضا !

وعادت بدرية تقول : راجح ... !

وربت راجح على كتفيها وهو يبتسم ، وقال : لا تخشى بعد اليوم شيئاً يا بدرية ؛ لن نفترق بعد ؛ لقد دنا اليوم الذى أرتقب يا عزيزتى من زمان ، لأغسل الدم بالدم ، وأنتقم ؛ فنعود أعزّة إلى الوطن الذى أُكرهنا على هجرانه ، ويومئذ ...

وطأطأت بدرية رأسها من حياء ، واسترجعت أمانى عاشت بها حيناً وعاش فتاها ؛ وسرحا بأفكارهما إلى بعيد ؛ إلى حيث كانا يلتقيان كل مساء تحت ضوء القمر فى ظلال النخيل القائمة على مقربة من بيوت الحى ، يتساقيان المنى ويتناجيان نجوى الشباب ؛ وابتسم ، وابتسمتْ ...

ودوى بوق المعسكر يدعو فرقة المتطوعين من أعراب الصحراء إلى نوبتهم فى العمل ؛ فهب راجح واقفاً ومضى إلى واجبه ، تتبعه عينان تفيضان بالحب والحنان ، ولسانٌ يخافت بالنجوى والدعاء !

محمد سعيد العريان

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :

السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فى مجلدين .

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — هاتفه ﴾